الدين والحداثة

الأستاذة : فتيحة بلمكي
قسم علم الاجتماع
جامعة تلمسان

-ملخص:

نتناول في هذا المقال كيفية تأثر الدين بالحداثة في المجتمع الجزائري.وذلك من خلال عرض شامل عن مفهوم الحداثة و مراحل ظهورها. ثم الطريقة التي وصلت بها في مجتمعنا و كيف تكيف الفرد الجزائري بما يحمله من ثقافة عربية اسلامية مع العناصر الثقافية الغربية التي جاءت بها الحداثة.

Résumé :

On a abordé dans cet article l'influence de la modernité sur la religion dans la société Algérienne. A partir d'une détermination globale de la modernité, et les étapes de son apparition dans la société Européen. Ensuite, on a expliqué comment l'individu algérien a adapté aux éléments culturels occidentaux de la modernité.

-مقدمة:

يمثل الدين عاملا أساسيا في بناء واستمرارية المجتمعات عبر التاريخ فرغم التحولات و التغيرات الاجتماعية إلا أنه لا يظل يشكل العمود الرئيسي في معظم المجتمعات وخاصة المجتمعات العربية الإسلامية، وذلك رغم كل التحديات التي واجهته من خلال ظهور الحداثة التي جاءت بفكرة العقل و العلم محل الدين، ولقد مست الحداثة كل المجتمعات بما في ذلك المجتمع الجزائري الذي عرف هو الآخر تحولات ثقافية و اقتصادية واجتماعية عبر مراحل زمنية مختلفة. فكيف إذن

استطاع مجتمعنا الاسلامي المحافظة على الاسلام في ظل التغيرات العصرية المتواصلة؟

-أولا:مراحل ظهور الحداثة:

الحداثة بمعناها السوسيولوجي هي موقف(ممارسة، رؤية للحياة) يظهر في عدة مستويات، فهي تدل على الخبرة الفردية والجماعية للعالم الحديث، وتم تجسيدها بأفكار تمثل ردا على عمليات التحديث الاقتصادية والاجتماعية،i عرفها إيمانويل كانط بالتعبير عن الأنوار قائلا:«خروج الإنسان من حال كونه قاصرا، وتعني هذه الحالة أنه عاجز عن استعمال ذهنه دون الاستعانة بالآخرين، وهو المسؤول عنها، لأن سببها ليس في الذهن بل نقص في أخذ القرار ونقص في الشجاعة، فلتكن لديك الشجاعة لاستعمال ذهنك، هذا هو شعار الأنوار»ii أي يجب أن يتحرر الفرد من سيطرة الجماعة باستعمال تفكيره الشخصي، أما ماكس فيبر فقد عبر عنها ب Désenchantement du monde أي نزع القداسة عن العالم أو فك السحر عن العالم، زوال الأخلاق المثالية وبقاء الأمور المادية بسبب العقلنة Rationalisation، كذلك يعبر عنها ديكارت بسيطرة الإنسان على الطبيعة و«التخلي عن النظر بعين الله إلى العالم»iii ولا يمكن تناول مفهوم الحداثة دون العودة إلى مساره التاريخي، فلقد بدأت ملامح الحداثة أولا على المستوى الديني(القرن16م) مع ظهور المصلح الديني مارتن لوثر (قديس ألماني) الذي جاء بفكرة التخلص من سيطرة الكنيسة، ثم انقسام المسيحية إلى المذهب البروتستانتي و المذهب الكاثوليكي بالتالي تشجيع حرية المعتقد الديني، أما على المستوى الفكر(القرن 17م)، بحيث كان هذا الأخير مؤطرا بالدين ثم أصبح عقلانيا(تجنيد العقل).

يعود الفضل في ذلك إلى غاليلي الذي طعن في الفكر الكنائسي بفكرة مركزية الشمس والأرض هي التي تدور حولها، وروني ديكارت الذي جاء بفكرة المنهج العقلي(أنا أفكر إذن أنا موجود) مؤكدا على ضرورة حرية التفكير الفردية، كذلك فرانسيس بيكون بإقصائه للفكر السكولاستي والتأكيد على التجربة والملاحظة كأداة لمعرفة الواقع(المنهج التجريبي)، وبعدها على المستوى السياسي(القرن 18م) والذي تجلى من خلال الصراع بين السلطة الدينية والسلطة الدنيوية، وبعد الثورة

الفرنسية انتصرت السلطة الدنيوية فأصبح الرعية(sujet) مواطنا حرا(citoyen) له حقوق وواجبات(حق التجمع، الانتخاب..). هذا التحرر على المستوى السياسي يؤدي إلى تحرر الإنسان على المستوى القانوني، فبعد أن كان الإنسان يطبق عليه القانون(Objet de droit) أصبح هو من يسن القوانين ثم تطبق عليه (sujet de droit).

صار الفرد مسؤولا عن أفعاله فقط (فرد قانوني) بعدما كانت القبيلة هي من تتحمل المسؤولية إذا ارتكب أحد أفرادها خطأ. (الانتقال من القانون اللاهوتي إلى القانون الوضعي)، أما على المستوى الاقتصادي(القرن 19م) و بعد التحولات التي أحدثتها الثورة الصناعية، فقد تم التحول من مجتمع زراعي(ريفي) إلى مجتمع صناعي(حضري)، أصبح للفرد حرية الاختيار والتحكم في مصيره الاقتصادي والبحث عن المنفعة(علاقات المنفعة)، أخيرا وعلى المستوى الاجتماعي(القرن 20م) فإن تعاقب هذه الفردنات على المستوى الديني، الفكري، السياسي والاقتصادي أنتج في الأخير الفرد داخل المجتمع. فبعدما كان الفرد جزءا من جماعات أصبح المجتمع يتشكل من طبقات اجتماعية.

بالتالي يجد الفرد نفسه ضمن طبقة معينة(يحكمهم القانون)iv كما تتجلى الحداثة على مستوى القيم والعلاقات الاجتماعية للمجتمع، «فإذا كان المجتمع التقليدي مجتمعا مغلقا تحكمه أخلاقيات متشددة وتسوده منظومة عقائدية ومنظومة قيم واحدة، فإن المجتمع الحداثي مجتمع تداهمه مجموعة من القيم المنفتحة القائمة على التعددية و قابلية التغير ومعيارية النسبية والحرية، فهو مجتمع متعلق بالمستقبل أكثر مما هو متشدد إلى الماضي.»v

كذلك نجد من مميزات الحداثة أنها مفروضة على المستوى العالمي ولا يمكن تجنبها، خاصة بسبب التطور التكنولوجي السريع، فلقد صارت كل المجتمعات مُخترَقة بالأشكال الحديثة للإنتاج والاستهلاك والاتصال، أما ألان توران فيعتبر أن الحداثة هي التأكيد على أن الإنسان هو ما يفعله، وأنها تشمل جانبين أساسيين: أولا الإنتاج الذي أصبح أكثر فاعلية بفضل العلم والتكنولوجيا و الإدارة.

ثانيا المجتمع الذي يُنظمه القانون والحياة الشخصية والمصلحة والتحرر من كل الضغوط.[vi] الحداثة، إذن، هي النوع الحضاري الذي وصل إليه المجتمع الغربي والذي كان حوصلة لتطورات عدة مستويات دينية، فكرية، سياسية، اقتصادية و اجتماعية، ترتكز أولا على مبدأ الفردنة (Individualisation) والتي تعني «انتصار الذات ورؤية ذاتية للعالم»[vii] أي تحرير الذات من سيطرة الدين و الجماعة ليصبح الفرد واعيا مستقلا يسير وفق معايير نفعية دقيقة.

بدأ الإنسان الأوروبي يتحرر من سيطرة الجماعة تدريجيا إلى أن أصبح فردا حرا ومواطنا له حقوق وواجبات، ولم يتأتى ذلك تلقائيا بل إراديا عن طريق ثورات معرفية وتكنولوجية كما سبق ذكره. ثانيا تعتمد على مبدأ العقلانية (Rationalité)، وهي عنصر لا غنى عنه لتحقيق الحداثة، عبر عنها ماكس فيبر بفك سحر العالم أي العقلنة (Rationalisation) فيقول:« لقد غدا مفهوم فك سحر العالم نتاج عملية التثقيف التي رافقت تشكل الغرب الحديث...

إنه عالم تسيطر عليه القناعة بأن كل ما هو موجود و كل ما يستجد في هذا العالم محكوم بقوانين يستطيع العلم الإحاطة بها و معرفتها، مما يسمح للتقنية العلمية بالسيطرة عليها. بعبارة أخرى، لا وجود لشيء إلا و يمكن توقعه، إنه عالم بدون سحر دون شك لأنه يستبعد كل تدخل لما هو فوق الحواس في نظام الأشياء الطبيعية والإنسانية.»[viii] أي أن نستبعد كل الأفكار و التفسيرات الميتافيزيقية الغيبية وتجنيد العقل لفهم الظواهر واستنتاج القوانين التي تمكننا من التنبؤ العلمي،و يوضح فيبر الفعل العقلاني من خلال تقسيم الفعل الاجتماعي إلى أربعة أقسام هي:

أولا الفعل العقلاني الغائي الذي يرتبط بهدف ما أو غاية معينة مع الحرص على التوافق بين الوسائل و الغايات. ثانيا الفعل العقلاني القيمي والذي يعتمد على أولوية القيم التي تحدد الفعل ولا يأخذ بعين الاعتبار النتائج المتوقعة لأفعاله، حيث تكون للفرد قناعة بواجب ما أو قيم دينية معينة.

ثالثا الفعل التقليدي المحدد بالعادات والتقاليد وأخيرا الفعل العاطفي الوجداني الذي ينتج عن وضعية الفرد العاطفية و يكون في أغلب الحالات كردة فعل لمثير عاطفي.[ix] ويعود ظهورها بشكل واضح إلى ديكارت وسبينوزا اللذان

حررا العقل الفلسفي من هيمنة العقل اللاهوتي المسيحي، كان يرى روني ديكارت(1596-1650) أنه لا يكفي أن يكون العقل سليما بل الأهم من ذلك هو أن نستعمله استعمالا جيدا، فالقدرة على الحكم العقلي السليم و تمييز الخطأ من الصواب يجب أن تنظم بالمنهج.

كما أن الأشياء لا يتم إدراكها بدقة بواسطة الحواس أو ملَكة التخيل بل بالعقل وحده.x أما سبينوزا (1632-1677) فقد أكد على فكرة الجوهر حيث يقول: «أن الجوهر هو الذي يكون في ذاته ويجري تصوره من خلال ذاته، وبعبارة أخرى، هو الذي يمكن لتصوره أن يتشكل مستقلا عن أي تصور آخر.»xi فالعقل يدرك جوهر الأشياء بصفة واقعية، أي كما هي عليه في ذاتها.

ثانيا:تأثر الدين بالحداثة في المجتمع الجزائري:

لقد جاءت الحداثة بفكرة العلم(العقل) محل فكرة الله (الدين) واقتصرت الاعتقادات الدينية على المستوى الشخصي لكل فرد، فكما رأينا سابقا أن أول ظهور للحداثة كان عن طريق رفض سيطرة الفكر الديني(الكنيسة) من خلال حركة الاصلاح الديني التي قادها مارثن لوثر، مما أدى إلى انقسام المسيحية إلى مذهبين: مذهب كاثوليكي و مذهب بروتستانتي، ثم طالت باقي المستويات: الفكري،السياسي، الاقتصادي والاجتماعي.

بدأ الإنسان الأوروبي يتحرر من سيطرة الجماعة تدريجيا إلى أن أصبح فردا حرا ومواطنا له حقوق وواجبات، ولم يتأتى ذلك تلقائيا بل إراديا عن طريق ثورات معرفية وتكنولوجية، أي بفضل عدة جهود وتضحيات كبيرة استطاع المجتمع الغربي الوصول إلى الحداثة الذي هو عليها اليوم. أما في المجتمع الجزائري فقد جاءت الحداثة مفروضة عن طريق الاستعمار الفرنسي الذي كان من أول وأهم العوامل التي أثرت بشكل كبير في تغيير مختلف بنيات المجتمع (الاجتماعية، الثقافية...) من خلال فرضه لثقافة عصرية جديدة مختلفة عن ثقافة المجتمع الجزائري آنذاك.

كانت غالبية السكان من الأرياف إذ تشكل القبيلة الخلية الأساسية للمجتمع والتي تقوم على الأرض وعلاقة القرابة وتشترك في مجموعة من التقاليد والقيم الثقافية التقليدية، إلا أن الاستعمار الفرنسي عمل على تفكيك وحدتها،

حيث قام بنزع الملكية الجماعية (التي يقوم عليها المجتمع التقليدي) بإرغام الجزائريين على بيع أراضيهم للمعمرين عن طريق قانون المرسوم الملكي Senatus Consulte المنعقد في 9مارس1863والذي أقر الملكية الفردية وتوطين الأوروبيين في العشيرة وقوانين Warnier(1873)، loi de contonnement(1879) مما أدى إلى تقسيم التجمعات القبلية (العروش) إلى قبائل ثم إلى أفراد، وتفككت القاعدة الاجتماعية (العروش، الزراعة) للمجتمع الجزائري.

عرفت الجزائر حركة جغرافية قوية نحو المدن بسبب السياسة التي مارسها الاحتلال الفرنسي والمتمثلة في محاولة إفراغ الريف من السكان لفصل المجاهدين عن الشعب، فتم تفكيك التجمعات القبلية ووجد الأفراد أنفسهم متجمعين في مراكز حضرية(المدن)xii، وانتقلوا من الفلاحة إلى المصنع ومحاولة طمس الهوية الإسلامية الجزائرية بكل الطرق والأساليب القمعية، وقد استمرت تلك التحولات حتى بعد الاستقلال خاصة مع عملية التصنيع التي شهدتها الجزائر في سنوات السبعينيات.

وجد الشباب أنفسهم، بما يحملونه من عناصر ثقافية تقليدية، أمام شكل جديد من الثقافة الحداثية والتي وجب عليهم التكيف معها، ومن أهم جوانب الحياة الاجتماعية التي تأثرت بالحداثة الغربية، الجانب الديني، حيث يرى عبد المجيد شرفي أن المؤسسة الدينية قد تغيرت بظهور عوامل جديدة فرضها الواقع الحديث كظهور الدولة الحديثة وتدخلها في المجال الديني. إضافة إلى ظهور قيم جديدة لم تكن معهودة من قبل مثل حرية المعتقد وحرية التعبير اللتان صارتا من مكونات الضمير الحديث والتي يصعب على أية سلطة دينية تجاهلهما.xiii حيث أن الإسلام احتل مكانة أساسية في حياة الفرد الجزائري، ولحد الآن لازال يحتل مساحة معتبرة في الحياة اليومية لأفراد المجتمع الجزائري.

أكثر من ذلك فقد شهدت السنوات الأخيرة ظهورا قويا للممارسات الدينية (الطقوس الإسلامية)، خاصة بعد تصاعد الحركات الإسلامية في المجتمع الجزائري، على الرغم من الغزو الثقافي المتواصل الذي جاء عن طريق الحداثة من خلال التطور العلمي والتكنولوجي السريع، خاصة في مجال تكنولوجيا الاتصال والتي قلصت من البعد المكاني بين المجتمعات مما أدى إلى سهولة التجوال بين ثقافات

متنوعة من العالم بدون الاضطرار إلى التنقل لهذه المجتمعاتإ إضافة إلى الوسائل والتقنيات التكنولوجية الأخرى التي تحمل قيم و أفكار حداثية جديدة والتي يراها الفرد الجزائري مناقضة للمبادئ الدينية الاسلامية أحيانا.

لكن هذا التمسك المستمر بالدين ليس قويا كما يبدو عليه، فموجات الحداثة التي اجتاحت المجتمع لم تكن هينة بل أدت إلى خلل في التعامل مع الدين، حيث أن ردة فعل الفرد الجزائري اتجاه العناصر الحداثية المتغيرة كانت عن طريق الانتقاء الذي يحقق متطلباتهم الاجتماعية بهدف محاولة تغيير حياتهم إلى الأحسن حتى ولو كانت مخالفة للمبادئ الاسلامية. مما يجعلهم في صراع دائم للتموضع ضمن إطار هوية جزائرية إسلامية، في حين أن ارتفاع ممارسة الطقوس الدينية الاسلامية يعبر عن عملية نفسية تهدف إلى منح الشعور بعدم تأنيب الضمير الجمعي الديني، لأنها تتركز أكثر على مستوى العبادات. فلأجل كسب مكانة في الجنة يعوض الفرد النقائص التي يدركها عن نفسه بكثرة ممارسة الطقوس الدينية.

وعلى سبيل المثال تأدية النوافل لزيادة عدد الحسنات وبلوغ مرضاة الله، أي أن هناك اختلال بين الاعتقادات والممارسات الدينية، فتأدية العبادات أسهل من تنفيذ المعاملات، لأن هذه الأخيرة لا تساير النظام الاجتماعي الحديث في العديد من المبادئ، وهنا يظهر التأثير القوي للحداثة الغربية على الدين الذي أصبح في مواجه مستمرة مع كل العناصر الثقافية الحداثية. مما جعل الفرد الجزائري في صراع دائم من أجل محاولة التوفيق بين المبادئ الدينية الاسلامية والمبادئ الثقافية الحداثية.

-خاتمة:

من خلال المسار التاريخي للحداثة في الجزائر، يظهر أول اصطدام بالحداثة الغربية عبر الاستعمار الذي فرض على المجتمع الجزائري التقليدي طريقة جديدة للحياة ورؤية مختلفة وغريبة عنه، بحيث تزعزعت بنياته التقليدية على كل المستويات الاقتصادية، السياسية، الاجتماعية، بالإضافة إلى التطور التكنولوجي السريع، خاصة في مجال الإعلام والاتصال الذي جعل من العالم قرية صغيرة، مما أدى إلى الانفتاح على الثقافات الأخرى بما تحمله من قيم جديدة أثرت بشكل أو بآخر على الهوية الدينية الاسلامية للفرد الجزائري ، إلا أنها لم تندثر أو تنصهر كليا في مجال الحداثة الغربية، بل لازالت قائمة بمبادئها الرئيسية ولازال المجتمع

الجزائري محافظا على المقومات الدينية ولو أنها ليست بالشكل والمستوى المطلوب منها سابقا.

-الهوامش:

[i] مارتن هاليويل، الحداثة والأخلاق. ترجمة محمد إبراهيم العبد الله، دار إنانا للطباع والنشر، الطبعة الأولى، 2005.ص11

[ii] بومدين بوزيد وآخرون، قضايا التنوير والنهضة في الفكر العربي المعاصر. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1999.ص91

[iii] فارح مسرحي، الحداثة في فكر محمد أركون. منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، الجزائر، 2006. ص32

[iv] http://philasophiasafadi.com بلخضر مزوار،الظروف الموضوعية لظهور المواطنة في أوربا. مجلة الفكر العربي المعاصر العدد 156-157 بتاريخ فيفري 2012.

[v] محمد سبيلا، الحداثة وما بعد الحداثة، دار توبقال، الطبعة الأولى، المغرب،2000. ص64

[vi] ألان توران،نقد الحداثة. ترجمة أنور مغيث،المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،1997. ص19

[vii] فارح مسرحي؛ الحداثة في فكر محمد أركون؛ ص 37

[viii] محمد سبيلا، عبد السلام بن عبد العالي، العقل و العقلانية. دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، المغرب، 2003. ص 41

[ix] فيليب راينو،ماكس فيبر و مفارقات العقل الحديث، ترجمة محمد جديدي، منشورات الاختلاف،الطبعة الأولى، الجزائر،2009. ص186-187

[x] جون كوتنغهام، العقلانية، ترجمة محمود الهاشمي، مركز الإنماء الحضاري، الطبعة الأولى، حلب،1997. ص 50-51

[xi] نفسه، ص60

[xii] محمد بومخلوف، التحضر. دار الأمة، الطبعة الأولى، الجزائر، 2001،ص 125

[xiii] حمادي بن جاب الله و آخرون، الحداثة جدل الكونية و الخصوصية، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى،بيروت،2014،ص138.

البيبليوغرافيا:

أولا– باللغة العربية:

- بومدين بوزيد و آخرون:

1- قضايا التنوير والنهضة في الفكر العربي المعاصر. مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، 1999

- حمادي بن جاب الله و آخرون:

1- الحداثة جدل الكونية و الخصوصية، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى،بيروت،2014

- فارح مسرحي:

1- الحداثة في فكر محمد أركون. منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، الجزائر، 2006

- محمد سبيلا:

1- الحداثة و مابعد الحداثة، دار توبقال، الطبعة الأولى، المغرب،2000

2 – العقل و العقلانية. دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، المغرب، 2003

- محمد بومخلوف:

1- التحضر. دار الأمة، الطبعة الأولى، الجزائر، 2001

ثانيا– باللغة الاجنبية:

- مارتن هاليويل:

1- الحداثة و الأخلاق. ترجمة محمد إبراهيم العبد الله، دار إنانا للطباعة و النشر،الطبعة الأولى، 2005

- ألان توران:

1- نقد الحداثة. ترجمة أنور مغيث،المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،1997

- فيليب راينو:
1- ماكس فيبر ومفارقات العقل الحديث، ترجمة محمد جديدي، منشورات الاختلاف،الطبعة الأولى، الجزائر،2009
-جون كوتنغهام:
1- العقلانية، ترجمة محمود الهاشمي، مركز الإنماء الحضاري، الطبعة الأولى، حلب،1997

ثالثا- مواقع الانترنت:

http://philasophiasafadi.com : بلخضر مزوار،الظروف الموضوعية لظهور المواطنة في أوربا. مجلة الفكر العربي المعاصر العدد 156-157 بتاريخ فيفري 2012.